

بسم الله الرحمن الرحيم

حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا

الدكتور/أحمد جمال ولد الحسن
قسم اللغة العربية

لقد تعددت الدراسات المتعلقة بتاريخ الإسلام في غرب إفريقيا خلال السنوات الأخيرة ، واتسع نطاق المسائل والظواهر التي تناولتها هذه الدراسات على اختلاف بينها كبير في المناهج والمنطلقات ، والمصادر والمستندات. إلا أن التقدم المطرد في حصيللة هذا الحقل المعرفي كما وكيف لم يعد محل جدال.

بيد أن المراقب الغمر - مثل كاتب هذه الأسطر - لا يملك إلا أن يبدي بعض المآخذ على هذه الحركة العلمية : منها أن الكثرة المطلقة مما تنتجه لا يصل إلى القارئ بالعربية عربيا كان أو غيره. والفروض أن هذا القارئ أول المعنيين بها وأوفر الناس حظا من مقومات الحوار معها ، حوار تثري من خلاله حصيلتها ، أو تتناولها بالمراجعة والتعديل. ومن مآخذ المراقب الغمر على هذه الحركة العلمية أنها غالبا ما تركز اهتمامها على مسائل بعينها : شخصيات أو مدارس أو دولا فتظل تبدي فيها وتعيد ، مغفلة قضايا أخرى قد لا تكون دونها قيمة ، وإعانة على فهم مسار التاريخ.

ومن هذه الظواهر المهمة نسبيا ، حركة الإمام ناصر الدين ، التي قامت في الجنوب الغربي من موريتانيا الراهنة خلال القرن ١١ الهجري / ١٧ م ، وشمل تأثيرها المباشر حوض نهر السنغال كله تقريبا ، بينما امتد تأثيرها غير المباشر -على ما نعتقد- إلى السودان الغربي المسلم كله .

وسنسعى في هذه المحاولة إلى تبين ما تتيح لنا معلوماتنا المتواضعة تبينه من ملامح هذه الحركة التي كانت ذات أثر حاسم له ما بعده في انتشار الإسلام في هذه المنطقة وفي العلاقات ما بين شعوبها المسلمة ، وما بين هذه الشعوب وبين الاستعمار الغربي.

وسنتناول في البداية مصادرنا المتعلقة بهذا الموضوع تناولا نقديا. ثم نتتبع أحداث الحركة التاريخية تتبعا خاطفا ، قبل أن نبرز أهم

الخصائص التي ميزتها ، ونختم باستعراض النتائج المنجزة عن هذه الحركة بالنسبة لمهدا موريتانيا ، ولمالك الضفة الجنوبية من نهر السنغال ، وللعلاقات بين سكان الضفتين.

١- المصادر

لم يترك لنا الإمام ناصر الدين كتابا نقرأه ، ولا وصلنا أثر مكتوب لأحد ممن رأوه عيانا ، وخبروا حركته على صعيد الواقع. وهذه ثغرة في معرفتنا التاريخية بالرجل لعلها لا تسد أبدا . وهي - ولا ريب - أصل هذا الغموض الذي يلف تفاصيل أمره ، ويحول بيننا وبين العلم اليقيني بتكوينه وآرائه ، وكثير من أحداث حياته ، ويجعل تصورنا إياه مرهونا بمعطيات ينقلها عنه رجال قد لا نشك في صدقهم ونزاهتهم أو بعضهم على الأقل ولكننا نجزم بأنهم كانوا يتصورون الأشياء ويصورونها متأثرين بتكوينهم ومواقفهم الفكرية والسياسية والمقتضيات الحافة بهم وهم ينشئون "خطابهم" المتعلق بالإمام ناصر الدين.

ولهذا رأينا من المفيد أن نعرض لمصادرنا بالنقد قبل أن نستثمرها في سرد الأحداث وذلك بغية إقامة مسافة معرفية بين الخطاب وموضوعه تجعلنا نحتاط منهجيا ، فلا نطابق بينهما كما فعل أكثر من تناولوا هذا الموضوع ، فاعتبروا أن ما تحويه هذه المصادر هو الإمام ناصر الدين ، كل الإمام ناصر الدين ولا شيء غير الإمام ناصر الدين. وأهم المصادر المتعلقة بهذا الرجل ثلاثة متباينة غاية التباين من حيث موقف أصحابها منه وعلاقاتهم بحركته ، وموقعهم منه زمانا ومكانا وانتماء عقائديا ، كما تختلف حجما ولغة ومضمونا.

ومن هذه المصادر الثلاثة مصدران تجمع بينهما سمتان : معاصرة الإمام و الموقف العدائي منه ، وأما في سوى ذلك فلا يلتقيان. كتب أحدهما بالعربية فقيه مسلم من مدينة "ولاته" ، وكتب الثاني بالفرنسية إداري مسيحي كان مديرا للشركة التجارية الفرنسية في مدينة "سان لويس" بالسنغال. رأى الفقيه الولائي في الإمام رجلا "من طلبة البادية خليقا بأن ينكر عليه لتعرضه للغيب الذي استأثر الله به ، ولاطراحه مراجعة كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وكلام السلف واستغنائهم في الأحكام بما زعم أنه تلقاه من الخضر عليه السلام ، ولتعرضه للفتن بين المسلمين" (١).

ورأى فيه الإداري التجاري الفرنسي رجلا دين مشاغبا أفسد بلاده وأقنع شعوب الممالك المجاورة بالثورة على ملوكها والخضوع لنفوذه

تحت ستار الدين والحرية وشكل بذلك خطرا جسيما على المصالح التجارية الفرنسية في حوض نهر السنغال (٢).

وثالث المصادر كتاب "أمر الولي ناصر الدين" ويدل عنوانه جليا على موقف صاحبه المناقض لسابقه ، فقد رأى في الرجل الذي ألف في مناقبه وكراماته ولما كاملا جمع علوم الأولين والآخرين ، وأحيا السنة وأمات البدعة ، وكشف له عن محجبات الغيوب... (٣).

وإذا تركنا جانبا ، في ميدان الاستنتاج التاريخي ، وثيقة الفقيه الولاتي لقلّة ما تحويه من معلومات فإن المصدرين الأساسيين المتعلقين بهذه الحركة يبقيان كتاب اليدالي ووثيقة شامبونو ، وعليهما جميعا أو متفرقين يعتمد كل من تناول الحركة فيما نعلم إلى حد الآن.

وواضح أن الباحث التاريخي لا يمكنه إلا أن يستفيد من هذين الأثرين بكل احتراز. حيث ينطلق أحدهما من عداء ألد ، وثانيهما من تبين عميق. بيد أنهما لا يخلوان من نوع من تكامل. فاليدالي ، وهو ينتمي إلى قبيلة الإمام ويعيش في الجيل الثاني بعد الهزيمة ، يهتم في المقام الأول بالخوارق والكرامات ولا يذكر النشاط السياسي والعسكري إلا استطرادا ، بينما على النشاط السياسي والعسكري يعكف الإداري الفرنسي وصفا وتحليلا ، ولا يرى في المحرك العقائدي إلا شعوزات وأكاذيب.

فيهذا الضرب من الاحتراز والاستغلال المتكامل نتعامل مع المصدرين الأكبرين فيما يخص موضوعنا مؤكدين ما أُلحنا إليه سابقا من أن معلوماتنا التاريخية تبقى ناقصة محتاجة إلى وثائق أخرى صادرة عن وجهات نظر مغايرة.

وقد تناولت الرجل وحركته دراسات حديثة متعددة قل منها ما اهتم بهما من الزاوية التي نريد هنا فضلا عن الوفاء بالفاية التي نتوخى. ومع اختلاف المنهج المتبع في تأويل الظاهرة ، من قراءة "عرقية" ترى فيها حربا بين العرب والبربر كما فعل مارتي (٤) إلى قراءة وظيفية انقسامية تعتبرها "أسطورة مؤسسة" لثنائية الزوايا وحسان على طريقة استيوارت (٥) إلى قراءة اقتصادية تصورها رد فعل من أصحاب التجارة الصحراوية مقاومة لتصاعد التجارة الأطلسية وهو مذهب باري (٦) وقد تبعه فيه ولد السعد (٧) بتحفظ لبق لا يغير من المضمون شيئا كبيرا إلى قراءة سوسيولوجية انتروبولوجية تجعل منها تعبيرا عن الصراع على السيادة بين "مديرى عالم الغيب" ومسيرى عالم العنف" بما تحمله كلتا الفئتين من مصالح وقيم ، وهو ما دافع عنه ولد

الشيخ بعلم جم وذكاء وقاد (٨) مع هذا كله فإن الغالب على هذه الدراسات كلا إنما هوما نسميه "الاستغلال الموريتاني للظاهرة" أي الاعتماد عليها في تفسير تاريخ المجتمع الموريتاني بعدها ، وتأويل بنيته الطبقية والايديولوجية. ونحن نستثني من هذا الحكم العام باري ، وقد كان بحكم مشاغله مهتما "باستغلال سنغالي للظاهرة" فسر من خلاله الصيرورة التاريخية في مملكة والو وبقي محكوما ، على وجه العموم بمقدماته المنهجية الاقتصادية.

أما موقع حركة الإمام ناصر الدين - وهي حركة إسلامية باتفاق الجميع - من مسار انتشار الإسلام في المنطقة ، وتأثيرها في أوضاعها الدينية والثقافية وعلاقاتها بالحركات الدينية السياسية اللاحقة فهو ما تفتن إليه قلة من الباحثين في مقالات تكاد تنحصر في أيدي المختصين نذكر منها مقالي كرتين (٩) ولفيتزون (١٠) الصادرين سنة ١٩٧١.

وفي هذا الاتجاه نريد أن يسير هنا الحديث ، تعريفاً وردفي هذين المقالين وإثراء له وإكمالا.

٢ - الأحداث

كان الجنوب الغربي الموريتاني في أواسط القرن ١١ الهجري / ١٧ م ، يشهد حركة بشرية واقتصادية وسياسية متعددة الأطراف والمكونات نتبين ملامحها اجمالاً ولا نقف على خصائصها تفصيلاً. فقد كانت قبائل المغافرة العربية المحاربة قد انتصرت حديثاً على بني عمها من أولاد رزك في وقعة انتيتام ، (١٠٤٠ هجرية / ١٦٣٠ م) ، وبدأت تنفرد بالسيادة العسكرية على البلاد. وكانت قبائل الزوايا (١١) - وغالبها من أصل لتوني ، تحاول الحصول حد ادنى من الأمان والإستقرار أمام هذه الموجات المتتالية من جباة الضرائب ونهبة الأموال ، وكانت الممالك الواقعة جنوبي نهر السنغال في بداية عهدها بالتعاون مع الفرنسيين الذين استقروا حديثاً عند مصب النهر وواصلوا من ثم صراعهم مع القوى الأوروبية الأخرى الحاضرة على الشاطئ الأطلسي الموريتاني خاصة الهولانديين.

في هذا الوضع المضطرب الغامض وفي سياق جهوي تميز بسقوط دولة السعديين في المغرب بعد أن سقطت على يديها دولة سنغالي في تينبكتو، وبتوالي المجاعات والحروب ، وازدياد الخطر الأوروبي تجارياً وعسكرياً ظهر في مجموعة تشمشه من زوايا الجنوب الغربي رجل لا

نعلم عن بداية حياته شيئاً كثيراً. وكان اسمه الأصلي "أوبك بن ابهم بن اشفغ ابهنض. وقد استطاع بفعل مواعظه البليغة "وخوارقه" الكثيرة أن يجمع حوله أكثر زوايا المنطقة بل سكانها قاطبة. وبعد ثلاث سنوات من الوعظ والتربية سماها الناس "أعوام التوبة" دعا الناس إلى بيعته وتسمى "سيدنا" ثم "إمامنا" ثم "مشيع الدين" ثم "ناصر الدين" (١٢). وشرع في إقامة نواة دولة فاتخذ الوزراء والقضاة وسعاة الزكاة ، وأرسل الرسل إلى ملوك ضفة النهر يدعوهم فيها إلى " أن يتوبوا إلى الله ، ويكثرُوا من الصلاة ويطيّلوها، وأن لا يزيّدوا على أربع نساء، وأن يطردوا المغنين والمهرجين وأصحاب المجون، وأعلمهم أن الله لا يبيح لهم أن ينهبوا أموال رعاياهم ولا أن يقتلهم أو يتخذوهم عبيداً " (١٣) ، وبعد أن عاد رسوله للمرة السابعة يحمل رفض ساتيكي ، ملك فوتا ، شرع في توجيه دعوته إلى شعوب المنطقة ، محرضاً إيّاها على الإطاحة بالملوك الظلمة. وسرعان ما استجابت لندائه الشعوب وشملت الثورة ممالك " فوتا " و " جولف " و " كايور " و " والو " ، وفي كل منها عين الإمام ناصر الدين نائباً عنه من أبناء البلد ، سار سيرة ملائمة لمقتضيات الدعوة الدينية الجديدة. وانضوت تحت راية الإمام ناصر الدين مناطق شاسعة تشمل حوض نهر السنغال كله بشعوبه المتعددة من عرب وبربر وولوف وبولار وفلان . وقد تضرر من ذلك طرفان لم يلبثا أن تحالفا بغية القضاء على هذا "المشعوذ الخطير " ونعني أصحاب السلطة التقليدية في المناطق التابعة للإمام والسلطات الفرنسية في "سان لويس" التي رأت في هذا الرجل خطراً سياسياً واقتصادياً مهولاً . وقد صرح شامبونو بموقف الفرنسيين الواضح من الطرفين المتنازعين إذ ذاك فقال: " إن الملوك يأتوننا لبضائعنا ، أما رجال الدين فإنهم يفتخرون بتجنبهم لنا، وذلك حتى يظهروا لشعوبهم أنهم زاهدون في لذات الدنيا وأنهم لا يعملون إلا لوجه الله وإعزاز دينه. ثم إنهم يزدروننا كثيراً بسبب الاختلاف بين ديننا وشعوذتهم ويوهمون شعوبهم أننا لا نشتري العبيد إلا لنأكلهم. ومنذ أصبحوا سادة البلاد فإن عبداً واحداً لم يدخل إلى سفننا. وبدون "السادة" يستحيل أن تكون لنا التجارة الرابحة بكل البضائع ... إن أحد هؤلاء الملوك لا يستطيع أن يستبقي لنفسه شيئاً حين يرى سفينة محملة بكل اصناف البضائع الجيدة" (١٤). وقد رفض الإداري الفرنسي دي مشين عرض الإمام ناصر الدين إقامة علاقات تجارية مبنية على الإحترام والمصلحة المتبادلين ، وعمل بكل ما أوتي من قوة للقضاء على "دولة التوبة وإمامها".

وفي ظروف لا تخلو من غموض انفجر الصراع على الضفة الشمالية من النهر بين الإمام ناصر الدين وبين المغامرة. واندلعت النار بين الطرفين ، وفي الثانية منها - وهي وقعة ترتلاس (١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) قتل الإمام ناصر الدين ، وجماعة من خيرة اتباعه رغم انتصار جيشه.

وكان موته خسارة لحركته لا تعوض ، فلم يكن من خلفائه من يتمتع بالإجماع المطلق المنعقد حول شخصه ولا بطاقاته الفذة في التعبئة والإقناع فضلا عن هالة التقديس المحيطة به.

وبدأت الخلافات في جنده بمجرد موته ، غير أنهم تمكنوا ، بعد خلع أشفغ الأمين بن سيد الفاضل عن إمامة قصيرة ، من تعيين إمام جديد هو القاضي عثمان.

وشرع الإداري الفرنسي دي مشين يستدرج والي الإمام ناصر الدين على مملكة والو وهو الذي يسميه اليدالي انطي صار (١٥) ويدعوه شامبونو يريم كودي (١٦) لينقض عهد "التوبة" وينفصل عن دولتها ، ولم ييأس الفرنسي لإخفاق محاولته الأولى بل أعاد الكرة حتى ظفر بغايته فأعلن هذا الملك الحرب على الدولة ، وتحالف مع أعدائها شمال النهر من زعماء المغامرة ، وعلى يديه قتل إمامها القاضي عثمان في وقعة انتينو ، وذلك بعون قوي من سيد سان لويس (١٧).

وتتالت المعارك بين خلفاء ناصر الدين و التحالف المعادي لهم المتألف من قادة المغامرة وملوك ضفة النهر السابقين يدعمهم الفرنسيون ، حتى انتهت إلى هزيمة تن يفظاظ الساحقة حوالي ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م.

تلك كانت بإيجاز مغل أبرز أحداث حركة الإمام ناصر الدين ، المعروفة بجانبها العسكري بإسم شربيه. وهي على رأي اليدالي كلمة بربرية تدل على شعار كان أنصار الإمام يتخذونه لهم ميزة (١٨). فما هي أبرز خصائصها بالنسبة لموضوعنا؟

٣ - الخصائص :

إن أبرز خصائص هذه الحركة إنها قد حملت الإسلام المجاهد لأول مرة في هذه المنطقة منذ عهد المرابطين بعد قرون من الفراغ السياسي في الصحراء الصنهاجية ولذلك رأى اليدالي " أن أكبر آيات ناصر الدين رضي الله عنه وكراماته إقبال الناس إليه من كل وجه بدويهم وحضرهم وأعرابهم وأعجمهم ... مع أن ذلك البلد لم يكن فيه سلطان ولا وال قط فلا علم له بتقديم أحد علي أحد ، إلا أن ملوكا من السودان كانوا في أرض بعيدة ، وكانوا يخشون السبي والإغارة من أولئك الملوك .. " (١٩).

وهذا الإسلام الفاعل سياسيا وعسكريا هو الذي أثار دهشة الفرنسيين الذين لم يكونوا يتصورون رجل الدين إلا درويشا زاهدا ، ولهذا افتتح شامبونو حديثه عن حركة التوبة بالتأكيد أنها أمر لم يسبق له مثيل . وما رأى الناس قط مرابطا (٢٠) أو راهبا - وهو الذي يجب أن يكون تواضعه عميقا وزهده متصلا ، وألا يهتم بثروات الدول أكثر من اهتمامه بالطين - يغادر وطنه ويذهب إلى بلد بعيد ليدفع أهله إلى الثورة ، ويجعلهم يقتلون أو يطردون ملوكهم بحجة الدين والوحي الالهي ليستولي عليهم ويحكمهم " (٢١).

وقد عارض جماعة من الفقهاء حركة الإمام ناصر الدين من نفس المنطلق تقريبا ، أي طول العهد بالإسلام المجاهد والحذر من "الفتنة" التي تنجر عن اهتمام رجال الدين بشؤون السياسة وتدبير الدول (٢٢).

وقد استطاع الإمام ناصر الدين بفضل هذا الإسلام المجاهد أن يجمع سكان حوض النهر والسنغال كلهم تقريبا في دولة واحدة تحت راية دعوة إسلامية ، وقد تم له ذلك بالاعتماد على السكان والإرتباط بمصالحهم ، فلم يكن يفتح البلاد بل كان يدعو سكانها فيثورون. لقد كانوا " يرون رجلا لم يبلغ الثلاثين ... غير معتن بالثياب حليق الرأس لا يحدثهم إلا عن شرع الله ومصلحتهم وحریتهم " (٢٣) وكان يقول لهم : "إن الله لا يبيح للملوك أن ينهبوا أو يقتلوا أو يستعبدوا شعوبهم ، بل أمرهم برعايتهم وحمايتهم من أعدائهم ، وأن الشعوب لم تخلق للملوك بل خلقت الملوك للشعوب " (٢٤). وعند سماع هذا الخطاب كانوا " يمزقون ثيابهم ، ويحلقون رؤوسهم ويضاعفون عدد صلواتهم ... ثم يصيحون في وجه ملكهم إنه ظالم يجب التخلص منه " (٢٥).

وقد شكلت هذه السلطة الموحدة المرتبطة بمصالح جماهيرها خطرا كبيرا على النفوذ الاستعماري الناشئ. وكنا أشرنا في ما سبق إلى بعض ملامح الموقف الفرنسي من الإمام ناصر الدين ، وهو موقف عدائي منذ البداية عمل أصحابه على تفكيك "دولة التوبة " أعانوا أعداءها بالمال والسلاح ، وأبوا أن يقيموا مع إمامها علاقات مسالمة حين عرضها عليهم . ولهذا الموقف أسباب سياسية واقتصادية واضحة ، فقد أوقف الإمام ناصر الدين تجارة الرقيق مع الفرنسيين من منطلق ديني واضح هو منع بيع المسلم للكافر (٢٦) ، كما كان من المنتظر أن يفاوضهم في شأن سائر البضائع من موقف القوة والاستقلال ، وذلك على العكس تماما من الملوك التقليديين ، الذين أصبحوا عبيد عاداتهم الاستهلاكية. ولا شك أن حركة الإمام ناصر الدين لو أتيح لها النجاح لكانت ذات أثر

كبير في تاريخ المنطقة ، ولانطبعت حياة شعوبها بهذه الخصائص التي ذكرناها ، ولكنها حتى وهي مهزومة قد كانت لها نتائج ذات بال.

٤ - النتائج

أ - في موريتانيا :

أدت هزيمة الحركة إلى وضع حد نهائي لمحاولات الجهاد ، و إلى تكريس التقسيم الفئوي الذي يمنع بموجبه على حملة العلم والدين حمل السلاح للهجوم أو التدخل في شؤون السلطة العسكرية ، وقد رفعوا شعار "من حمل السلاح فقد ترك الصلاح" ، ونشأ عن ذلك ضرب من "اللائكية الفعلية" غير مصرح به ولكنه بالغ التأثير في الحياة الفكرية والاجتماعية.

ولكن إلغاء الخيار السياسي العسكري لم يترك قبائل الزوايا مكتوفة الأيدي ، بل إنها قد نشطت نشاطا بالغا في ميدانين مرتبطين : الثقافة العربية الإسلامية والتصوف الطرقي. فازدهرت في هذه الصحراء الشنقيطية علوم الشرع الإسلامي واللغة العربية ازدهارا كبيرا وأصبحت الطرق الصوفية مؤسسات فكرية واقتصادية ذات إشعاع عظيم.

ثم إن انتصار المغامرة - وهم القبائل العربية المعادية للإمام ناصر الدين - وما نجم عنه من قيام الإمارات المغفرية أو "المتغفرة" قد عجل بتعرب فئات عريضة من سكان بلاد شنقيط وسادت لغتهم الحسانية فكانت أداة توحيد للمجتمع العربي الشنقيطي.

ب - في ممالك الضفة الجنوبية من النهر :

كانت أهم نتائج حركة الإمام ناصر الدين في هذه الممالك هي الانتقال من إسلام الملوك إلى إسلام الشعوب. وذلك أن السلالات المالكة كانت تعلن إسلامها بانتظام منذ القرن ٥ هجري / ١١م على الأقل (٢٧) بينما كان إسلام الرعايا على سطحيته مشوبا أحيانا كثيرة بأضغاث من وثنية.

ولا يمكن فهم التحول الظاهر في انتقال الإسلام من البلاط إلى حياة العامة ، وتحوله إلى سلاح بأيدي الشعوب ، وراية لحركات الثوار إلا بالرجوع إلى حركة الإمام ناصر الدين ، التي اعتمدت أساليب شعبية في الدعوة والعمل السياسي وربطت بين الإسلام وبين مطالب التغيير عند الجماهير العريضة.

وقد كان من شأن هزيمة الحركة على أيدي التحالف الأرستقراطي -الفرنسي ، أن يشكل المهاد الصالح لهذا المسار التاريخي إذ ارتبط

ملوك المنطقة بالتجارة الفرنسية وما تمنحهم إياه من امتيازات ، وما يقتضيه التعامل معها من البطش بالشعوب واستغلال ثرواتها وبيعها عبيدا ، بينما بقيت عامة الشعب متجهة إلى الإيديولوجيا الإسلامية الحامية من ظلم "الملوك والنصارى". ولنسق هنا قول شامبونو متحسرا على اهدار دم بعض الفرنسيين وقد قتلهم رجال دولة التوبة "لو أن هؤلاء الرجال البيض كانوا قتلوا في بلاد أحد الملوك للزم أن يدفع البلد كله إلينا أكثر من ثلاثمائة عبد ، وأن يسلم إلينا ما أردنا من المجرمين لنتقم منهم كيف نشاء" (٢٨).

ومن هنا يسهل على المرء أن يفهم انتقال الإسلام المجاهد إلى الضفة الجنوبية من النهر بعد أن هزم في الشمالية ، ويتضح له أن الثورات المتتالية التي أدت إلى قيام الدول الإسلامية في بوندو وفوتا جالون وحركات الجهاد في القرن ١٣ هجري/١٩م ، إنما كانت امتدادا لحركة الإمام ناصر الدين واستثمارا للرصيد الإسلامي الشعبي الذي انشأته وخلفته وراءها. ولم يكن هذا التأثير ، كما يتبادر إلى ذهن غير المتبصر ، تأثيرا بمجرد السماع ، بل إن الحركة قد شملت هذه المناطق بالفعل وبقي فيها نفوذها الديني والإيديولوجي بعد انحسار نفوذها السياسي المباشر.

وقد أوضح كرتين أن "تأثير ناصر الدين لم ينته بنهاية الحرب...وفي جنوب الصحراء ظل مفهوم الإمامة هدفا ماثلا يسعى إليه من خلال ثورات دينية" (٢٩).

وقد نبه إلى أن زعماء جميع الدول الإسلامية في الضفة الجنوبية قد اتخذوا لقب "الإمام" تأسيسا بناصر الدين ، ولو صحفوه بعد إلى "المامي" أو "اليمان" وذلك بداية من الإمام مالك سي مؤسس الدولة الإسلامية في فوتا بوندو حوالي سنة ١١٠٠ هجرية/١٦٩٠م وهو الذي تربطه التقاليد المروية بالبيضان "شعب ناصر الدين" (٣٠).

ولا شك أن لحركة "التوبة" تأثيرا قويا في قيام دولة إمامية في فوتا تورو ، خاصة إذا علمنا أن أكبر أئمتها وهو المامي عبد القادر قد تلقى دراسته في موريتانيا على أيدي ورثة الإمام ناصر الدين (٣١) كما يؤكد الباحثون امتداد هذا التأثير إلى فوتا جالون ، واستلهاهم مؤسسي دولتها الإمامية من النموذج الموريتاني (٣٢).

غير أن أحدا لم يفترض إلى حد الآن ، على ما نعلم ، أن فلول أنصار ناصر الدين قد شاركوا مباشرة في هذه الحركات والإعداد لها وهو أمر يصرح به اليدالي في استعراضه لنتائج الهزيمة الأخيرة في تن يفظاظ: "ثم انعقدت البقية من الرجال وفروا بدينهم عن المغفرة. فيهم محنض ابن جب البرتيلي

ومحنض ابن الشيخ التاندغي وقطعوا البحر ، وصاروا يجاهدون هناك سودانا قتل انهم ليسوا على الإسلام" (٣٣) ولو أتيح لنا أن نعرف من مآل هؤلاء الرجال شيئا لأثبتت العلاقة المباشرة بين هزيمة الجهاد الموريتاني وانطلاق الجهاد السوداني.

ويبقى استنتاج كرتين جديرا بكل اهتمام إذ يقول "ان ظهور هذه السلسلة من الثورات الدينية ، التي بدأت بالجنوب الموريتاني واتبعت خطا متصلا في تماسها وتداخلها... يمكن أن يكون ظاهرة متميزة في حد ذاته ، وقد تكون له انعكاسات كبرى على تأويل التاريخ الديني في غرب افريقيا " (٣٤).

ج - في العلاقات بين شعوب المنطقة
لقد أدى قيام الحركة فهزيمتها إلى ربط جسور تواصل مستمر بين شعوب المنطقة وخاصة بين الشعب العربي في بلاد شنقيط وجيرانه من الشعوب المسلمة في حوض نهر السنغال.
وكان هذا التواصل أخذا وعطاء بيد أننا نقف منه هنا على ميزتين أساسيتين .

فقد تلقى سكان الضفة الجنوبية من النهر عن عرب بلاد شنقيط الثقافة العربية الإسلامية والطرق الصوفية التي ازدهرت على أيديهم بعد أن تفرغ لها أصحابها. ولافائدة من استعراض التفاصيل بل نجل القول أن تأثير هؤلاء "الزوايا" العلمي والفكري أمر لا يحتاج برهان . فمحمد اليدالي والشيخ سيدي المختار الكنتي (ت ١٢٢٦هـ/١٨١١م) والشيخ محمد الحافظ العلوي (ت ١٢٤٧هـ/١٨٣٠م) والشيخ سيدي الكبير (ت ١٢٨٤هـ/١٨٦٨م) ومحمدن فال بن متالي (ت ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) ... وغيرهم كثيرون كان لهم تلاميذ ومريدون نشروا المعارف الإسلامية العميقة في السودان الغربي كله (٣٥).

وبالمقابل أبدى زوايا شنقيط اهتماما كبيرا بالجهاد الإسلامي في بلاد السودان ، وناصروا أصحابه بكل ما أوتوا من قوة ، فكانما رأوا فيهم تحقيقا لحلمهم المكبوت والقائمين نيابة عنهم بفريضة الجهاد التي عجزوا عنها . يقول الشيخ سيدي الكبير من أرجوزة له في مدح ال عثمان دان فوديو، اصحاب دولة سوكوتو :

رددتم فرضا له جموح إذ عاق عنه العجز والطموح (٣٦)

ويكفي مثالا على ما نقول أن المامي عبد القادر ، رغم أنه قد قتل أمير الترازة اعلي الكوري (ت ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م) بعد هزيمة منكرة ، فإنه قد لقي تأييدا واسعا في صفوف زوايا هذه الإمارة بالذات حتى قال

فيه حرمة بن عبد الجليل العلوي :
قد فقت كل ملوك الأرض قاطبة وفقت في العلم والعرفان كل ولي
ما سار سيرك في شأ والتقى أحد إلا سميك عبد القادر الجيلي (٣٧)
كما أن الشيخ محمد المامي بن حبيب الله (ت ١٢٩٢ هجرية / ١٨٧٥ م)
، كان يفخر بأن أمه قد سمته "المامي" تيمنا بهذا القائد الإسلامي
العظيم.

وقد عبر هذا العالم والمنظر السياسي عما نريد هنا أحسن تعبير ،
حيث قال بعد شكوى حارة من ما عليه بلاده من فوضى سياسية وغياب
للدولة المركزية وتعطيل لحدود الإسلام "وقد رأيت المان بوبكر يقيم
الحدود بيده بجوله ، فله دره !" (٣٨).

وقد وجه الشيخ محمد المامي قصيدة طويلة إلى الحاج عمر الفوتي
يهنئه فيها بانتصاراته ويسدي إليه نصائحه ، ويشكو إليه وضع بلاده
السياسي (٣٩) ، كما ألف أحد علماء بلاد شنقيط هو أحمد بن بدي
العلوي (ت ١٣٢٣ هجرية / ١٩٠٥ م) كتابا هاما عنوانه "الدرع والمغفر في
الذب عن الحاج عمر" (٤٠).

ونرجو أن تكون هذه الملاحظات العجلى قد مكنت من التنبيه إلى ما
لحركة ناصر الدين في تاريخ المنطقة من قوي الأثر ، وما نسجت بين
شعوبها من متين الصلات وكيف تلونت نتائجها من سياق تاريخي
لآخر.

ولعل هذه الوريقات تكون فاتحة اهتمام بهذه الظاهرة ومثيلاتها ،
يتعاون في إنجاز مهامه الباحثون ، وتمتزج في مصبه حقول الاختصاص
، فيثري معرفتنا بماضيها وينير تصورنا لمستقبلنا ويؤصل فقها بنا .

هوامش

هذا البحث في أصله مساهمة في ندوة " البعد الإنساني في الحضارة الإسلامية ودوره
في العلاقات العربية الإفريقية" تونس نوفمبر ١٩٨٥
(١) محمد بن أبي بكر بن الهاشم الفلاوي. (ت ١٠٩٦ هجرية / ٥ - ١٦٨٤ م) فتوى ملحقة بالجزء
الثالث من كتاب ولد الشيخ.

OULD CHEIKH : Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale.

(2) LOUIS MOREAU DE CHAMBONEAU : L'histoire du Toubenan , ou
changement des Royes , et Réforme de religion des Negres du Sénégal Coste d'Afrique
depuis 1673 qui est son origine jusqu'en 1677. in Carason T.A.Ritchie : Deux textes sur le
Sénégal 1673 - 1677 BIFAN, XXX, Serie B, N°1, (1968) P 338...

(٣) محمد اليدالي : المرالولي ناصر الدين

In I.HAMET: Chronique de la Mauritanie Sénégalaise Paris 1911.

ومؤلفه محمد اليدالي (١٠٩٦ هجرية/١٦٨٥ م - ١١٦٦ هجرية/١٧٥٣ م)
من أبرز علماء المنطقة في عصره ولعله أولهم تدويناً لأحداثها التاريخية وقد أخطأ هامت في
نسبة هذا الكتاب إلى والد بن خالنا.

(4) P. MARTY : L'Emirat des Trarza Paris. E. Leroux 1916

(5) C.C.STEWART : Islam and social order in Mauritania
Oxford calarendon Press 1973

(6) B. BARRY : Le royaume du Walo
Paris Maspéro 1972

La guerre des marabouts dans la région du fleuve Sénégal. Bull. IFAN. 33, 1971,
PP 564 - 589.

(٧) محمد المختار ولد السعد : نظرة تاريخية على شريعة إناواكشوط ١٩٨٢.

(8) OULD CHEIKH. op. cit.

(9) P.H.D CURTIN : Jihad in West Africa, early phases and inter-relations in
Mauritania and Sénégal. Journal of African history, XII, N° 1(1971) P11-24.

(10) N. LEVITZON : Notes sur les origines de l'Islam militant au Fouta- Djallon.
Notes Africaines N° 132 Oct. 1971 P 94-96

(١١) الزوايا : مصطلح يطلق في بلاد شنقيط على الفئة الإجتماعية التي تشتغل بالعلم
والتجارة وتتجنب العنف العسكري.

(١٢) محمد اليدالي : أمر الولي... : ص ١٤-١٥

(١٣) CHAMBONNEAU P. 338 شامبونو

(١٤) CHAMBONNEAU P. 352 شامبونو

(١٥) اليدالي ص ٢٨. ولعل اليدالي يخلط بين والي الامام ناصر الدين على "الو" وبين
واليه على منطقة "كايور" وهو الذي يسمى "اندي" صار" أو نداي صار. راجع :

L.C. COLVIN : Islam and the state of Kajoor.
Journal of African History, XV, 4 (1974) PP 587- 606.

(17) CHAMBONNEAU P. 344

(١٧) شامبونو

(١٨) اليدالي : أمر الولي... ص ١٥

(١٩) اليدالي : أمر الولي... ص ١٠

(٢٠) أصبحت كلمة مرابط Marabout تعني في غرب افريقيا رجل الدين المسالم مع انها في
الأصل تعني رجل الدين المحارب ، ولهذا التطور الدلالي مغزى تاريخي كبير.

21) CHAMBONNEAU P 338

- (٢٢) سبق أن اشرنا إلى موقف ابن الهاشم الفلاوي وقد اتبع فيه شيخه ابن الأعمش العلوي (ت ١١٠٧ هـ / ١٦٩٦ م). راجع :
OULD CHEIKH T3 P 756.
- (٢٣) شامبونو
23) CHAMBONNEAU P 339
- (٢٤) المصدر والصفحة نفسها Idem
- (٢٥) المصدر والصفحة نفسها Idem
- (٢٦) حاول باري تفسير هذا الموقف بحرص زوايا موريتانيا على استبقاء الرقيق لا أنفسهم ، وهو تفسير يلغي الأساس العقائدي الديني لحركة الإمام ويتجاهل الحقائق التاريخية في المنطقة. راجع :
- OULD CHEIKH III
27) AMAR SAMB : L'Islam et L'Histoire du Sénégal
28) CHAMBONNEAU : P : 353
29) CURTIN op. cit. P18
30) Idem
- (٣١) المختار بن حامد: حياة موريتانيا ج ٢ ص ٦٣.
- 32) LEVITZON op. cit.
- (٣٣) اليدالي : امر الولي ناصر الدين ص ٤٩.
- (٣٤) كرتين
34) CURTIN op. cit. P 32.
- (٣٥) يمكن الوقوف على نماذج من هذا التأثير بالرجوع إلى تراجم أهم دعاة الإسلام بالسنگال في عمر صمب " الإسلام وتاريخ السنغال " . A.SAMB. op. cit.
- (٣٦) الشيخ سيديا : الديوان مخطوط بملكانا.
- (٣٧) محمد فال بن بابيه : التكملة في تاريخ إمارتي البراكنة والترازة. تحقيق أحمد ولد الحسن . ص .
- (٣٨) الشيخ محمد المامي : كتاب البادية مخطوط بملكانا
- (٣٩) مخطوط بملكانا
- (٤٠) مخطوط بمكتبة أهل بدي ، النباغية.